# الشرق الاوسط فى معترك

# الصراع الامريكى الروسى

بقلم صلاح الدين عبده جلال

خرج العالم بعد الحرب العظمى محتفظا نوعا بتوازنه. ما قبعت الولايات المتحدة فى عزلتها، وبعدت الروسيا بعد ثورتها عن المجال الدولى، وشغلت المانيا بتضميد جراحها، إلا أنها خرجت محتفظة على الأقل بوحدتها السياسية والاقتصادية .. وإذن لم يبق من يستطيع التأثير فى كفة السلام سوى إيطاليا وفرنسا وانجلترا.

بدأ الناس يشيدون صرح الآمال والمثل، ولكن سرعان ماخيم جو تملؤه المخاوف والاضطرابات، وأصبح ميثاق تحريم الحرب غير ذى موضوع. ونشبت الحرب الثانية، وكانت من القسوة والشدة بحيث تطرق إلى البعض أن الحياة فى عالم يستحيل فيه السلام والعدل لاقيمة لها. وإن الدول اليوم تتأرجح بين عوامل الفوضى وعناصر الاستقرار، وظهر ماردان يختلفان فى كثير، ويبدو كأنما ليس فى الوسع أن يتفاهما لاختلاف مبادئهما وعقائدهما. ولئن قال البعض إن فى الوسع أن نخلق نظاما وسطا من مبدئيهما فيتحقق السلام. فالروسيا امبراطورية فتية واسعة، وأمريكا تشاركها فى غناها وفتوتها وإن اختلفت عنها فى مبادئها والأهداف البعيدة.

وما زال الشرق الأوسط منفذاً سهلا للطامعين من أهل الغرب فى موارد الشرق. ففى الجنوب منفذان مائيان : أحدهما يمتد مع الخليج الفارسى ، والآخر يمتد مع البحر الأحمر ، يزيد في أهميتهما أنهما يسيران فى أقاليم غنية الموارد ، بل أنهما طريقان طبيعيان يصلان الشرق والشرق الأقصى بالغرب . وقد كان التسلط على هذين الذراعين المائيين والسواحل المحيطة بهما غاية كل من يريد السيطرة منذ أقدم العصور .

خرجت الروسيا والولايات المتحدة من الحرب الأخيرة تغلب عليهما المطامع ، كما أن خوف كل منهما من الأخرى جعل كلا منهما يضمر للآخر سياسة لاحباط خطته . . . وإن عقيدة ترومان — وهو الاسم الذي اتخذ اصطلاحا ليخفى وراءه سياسة أمريكا الخارجية — هدفها الأول إحاطة الروسيا فى آسيا وأوربا ، وعلى الأخص فى منطقة الشرق الأوسط ، بسياج من الدول القوية تكون « حاجزاً مانعا » بين مناطق نفوذ الدول الغربية ، وبين أراضى الاتحاد السوفيتى ، وعلى استعداد لأى خطر مفاجىء فتصده ... نظرة واحدة إلى الخريطة تبين أن دولا ثلاثا قد أقيمت فيها أمريكا بالفعل نشاطها ، وهى اليونان ، وتركيا ، وإيران . وهذه الدول الثلاث تحوط أراضى الاتحاد السوفيتى ، وبالتالى هى مفتاح الشرق الأوسط كله . وسياسة أمريكا هذه مكملة لأعمالها فى الصين حيث أمدتها بالخبراء والفنيين العسكريين ، والأطباء والمهندسين ، والأساتذة ومن هم أقدر على مد شبكة السكك الحديدية والقضاء على العناصر الشيوعية التى تريد فصل كوريا ومناطق الشمال فى الصين ، لانشاء دولة شيوعية ترتبط بالاتحاد السوفيتى .

ولو أمعنا النظر فى منفذ الروسيا إلى المياه الدافئة فى البحر المتوسط ، لوجدناه الدردنيل والبسفور . وقد اتخذت بريطانيا بمعونة أمريكا كافة الاحتياطات التى تكفل لها إنقاذ المضايق إثر نشوب حرب بين تركيا والروسيا . .

وإذا فرض وتمكن الأسطول الروسى من الخروج إلى بحر إيجه . فان أسطولى انجلترا والولايات المتحدة ويفوقانه بنحو عشرة أضعاف، يضمنان وقفه عندحده ، إن لم يكن القضاء عليه فى بحر إيجه .. وإذا كانت قناة السويس الشريان الحيوى للتجارة الدولية فى هذه المنطقة . فان الخطط الاحتياطية جعلت القواعد البحرية تحت تصرف الأسطولين البريطانى والأمريكى ، وتشمل هذه القواعد كريت وبعض الموانى فى اليونان . بل إن هناك قاعدة بحرية جديدة يراد إنشاؤها فى جنوب غربى الأناضول ، ويغلب أن تكون فى خليج الاسكندرونة لمناعة الطبيعة وحماية الجبال . وهناك مشروع آخر وهو إنشاء قاعدة مساعدة فى مكان يدعى ( مرمره ) على الساحل الغربى للاناضول . وهناك تفكير فى مد خط حديدى من الاسكندرونة إلى إيران .

هذه الاحتياطات لم تغب عن بال الروسيا ، فأرادت أن تحمى نفسها فى تلك الجهات ، بل أنها تعد شرق أوربا عامة ، والبلقان خاصة ، منطقة نفوذها ، الأمر الذى جعلها تتنازل عن عدائها للكنيسة ورجالها ، فاستعادت بذلك زعامتها للمذهب الأرثوذكسى التى تنتمى إليه الكثرة العظمى فى البلقان . وإذ خرجت الروسيا من الحرب منتصرة ضمت إليها جمهوريات البلطيق السابقة (عدا فنلندا ) كما ضمت جزءاً كبيراً من بولندا الشرقية ، واستعادت بسارابيا وبكوفينا من رومانيا ، بحجة أن كثرة السكان في هذه الأقاليم تنتمى إلى الروسيا .

وإذا كانت الروسيا قد استكملت الزعامة فى الجنوب الشرقى من أوربا ، فان احتلالها لشرق ألمانيا جعلها تزعم أن من حقها أن يكون طريقها فى البلقان ودول الدانوب مأمون الجانب ، موصول الأطراف بالاتحاد السوفيتى .. كان من المحتم على مثل هذه السياسة أن تؤدى إلى الاحتكاك بتركيا واليونان ومعارضة الدول الغربية التى لها فى الدردنيل وفى اليونان وبحر إيجه ، مصالح

اقتصادية واستراتيجية على جانب كبير من الأهمية .

رأت أمريكا كل هذا الأمر الذى اقتضي خروجها من سياسة العزلة التى درجت عليها إلى حد بعد الحرب العظمى ، وطرحت جانبا وصية جورج واشنجتن بأن « لأوربا مصالح معينة لا يربطنا بها أية رابطة ، وإذا ربطتنا فمن بعيد جداً » . وخرجت على تصريح منرو المشهور الذى دعمه ولسون بقوله . « إن مذهب منرو تؤكده كل موارد الولايات المتحدة » .

لم يعد لكل هذا وجود ، وخطب الرئيس ترومان في ١٢ مارس سنة ١٩٤٧ أمام الكونجرس ، طالبا الموافقة على عقد قرض بمبلغ ٤٠٠ مليون دولار لمساعدة اليونان وتركيا ، لأنه « فى سبيل تقدم الشعوب فى ظلال السلم ، وإبعاد أسباب القهر والاستبداد ، نهضت الولايات المتحدة بدور رئيسى فى تكوين هيئة الأمم المتحدة ... ولا يمكن أن نحقق أغراضنا إلا إذا عقدنا النية على مساعدة الشعوب الحرة فى المحافظة على نظمها الحرة وسلامة وطنها ضد الحركات العدوانية التى تحاول فرض نظمها الدكتاتورية عليها ... فاذا أمسكنا عن مساعدة اليونان وتركيا فى هذا الوقت العصيب ، فسيكون لامساكنا هذا آثار بعيدة المدى تصيب الغرب والشرق » . ولا شك أن خطاب ترومان هذا جاء نتيجة لقول مستر جيمز بيرنز أمام لجنة الشئون الخارجية من ( أن ما تعانيه أوربا فى المستقبل من قلق واضطراب سيكون مصدره على الأرجح بلاد البلقان ) .

قصدت أمريكا مساعدتها لغرضين اثنين !

أولهما : وضع حد لأعمال الطوائف الشيوعية التى أفلحت في اليونان وأقامت أخيرا حكومة (يونانية حرة) يرأسها الجنرال ماركوس . وثانيهما أن مساعدة تركيا إنما هو للوفاء بمطالبها العنصرية التى لا غنى عنها للاحتفاظ بسلامة أراضيها مما يتوقف عليها بالتالى سلام الشرق الأوسط . والحقيقة أن المسألتين تتمم كل منهما الأخرى ، فالضغط على اليونان من ناحية الشيوعيين

يؤدى إلى إحراج مركز تركيا وإحاطتها بسيل شيوعى تضعف أمامه. والضغط على تركيا من ناحية المضايق ومطالب الروسيا بشأنها، إنما يراد به الوصول إلى اليونان عن طريق بحر إيجه، ثم البحر المتوسط . ولما كانت تركيا واليونان (بحكم موقعهما الجغرافى) حارستين فى مفترق الطرق بين الشرق والغرب، وتحتلان منطقة غاية فى الأهمية والخطورة، أصبحت هاتان الدولتان فى منطقة اصطبغت باللون الأحمر بعد الحرب العالمية الثانية .

إذن فالرئيس ترومان قصد من مساعدته هذه مساعدة عسكرية واسعة النطاق، بل إن بعضا من هذه قد وصل بالفعل إلى هذه المنطقة . وبذا تستطيع أن تقف فى وجه الخطر الروسى المسيطر على رومانيا ويوغوسلافيا وبلغاريا . خصوصا وأن انجلترا ليست فى موقف يؤهلها لتقديم مساعدة قوية بمفردها . والحقيقة السافرة أن المصالح الانجلوامريكية في الشرق الأوسط . والتي تتركز حول مناطق البترول هى الهدف الأول المقصود بالحماية . ومهما حاول ترومان أن يصبغ أقواله باللون العاطفى المثالى . فالحقيقة غير خافية . إن مثل هذه السياسة الجديدة التي تزج بأمريكا فى خضم المشاكل، قد حمل عليها الكثيرون ومنهم هنرى ولاس الذي قال: «إنها قد تكون أقوى سلاح لمحاربة الشيوعية إلى الآن، ولكن الولايات المتحدة أصبحت فى الواقع مركز الرجعية فى العالم . وقد تحترمها الأمم بسبب قوتها ، ولكنها تكرهها وتخشاها بسبب الطريقة التى يستخدم بها الأمريكيون هذه القوة » . بل لقد رأى البعض أنها تناقض ميثاق هيئة الأمم المتحدة، ولكن مجلس الأمن حين أثير فيه أمر هذه المساعدة أقر أمريكا على برنامجها لمساعدة اليونان وتركيا .

أما الروسيا ذات المطامع فى تركيا فأرادت أن تجعل من مشكلة الأرمن ما يقلق بال الأخيرة . لقد قطع الحلفاء للأرمن العهود المتكررة مقابل تأييدهم فى الحربين العالميتين، ولكن خرج الأرمن منهما بدون فائدة عملية .

obeikandl.com

لقد تمتع الأرمن سنين طويلة باستقلالهم التام ، ولكن اقتسمت كل من إيران وتركيا والروسيا بلادهم . وبعد الحرب العالمية الأولى أنشئت لهم دولة انهارت بعد ثلاث سنوات ( ١٩١٨ - ١٩٢١ ) واقتسمها الترك والروس من جديد . والحكومة الروسية إذ تزمع إنشاء جمهورية أرمنية كبرى ، سهلت عودة الأرمن إلى بلادهم . بل لقد أعلنت أكثر من مرة عطفها عليهم لأنها تعتبرهم من العناصر التي خدمت الوطن السوفيتي إبان الحرب ، إذ أن نحوا من ٣٠٠ ألف منهم حاربوا بالفعل فى الجيش السوفيتي ، ومنهم ٣٥ من القواد . وقد زاد اهتمام الروسيا بأبنائها الأرمن الموجودين على الأخص فى كل من إيران وتركيا . وهم يبلغون فى الأولى نحو ١٢٠ ألفا ، وفى الثانية نحو ٦٠ ألفا . وإن الأرمن الذين هاجروا إلى سوريا . وعلى الأخص من كان منهم فى الأسكندرونة ، وعددهم حوالى ١٦٠ ألف . ما أحوج الروسيا إليهم .. ومنحت الروسيا كل أرمني قطعة أرض وسلفة قدرها ١٥٠٠ جنيها استرلينيا ، يسددها بعد أجل طويل . ولنا إذن أن نتصور جمهورية سوفيتية أرمنية مساحتها ٣٠ ألف كيلومترا مربعا لا تتسع لجميع المهاجرين الأرمن في العالم إلا إذا ضمت إليها المقاطعات الأرمنية القديمة التي هى جزء من تركيا وإيران .

وإذا كانت المساعدات المالية والمشروعات الاقتصادية إحدى وسائل إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فهى بالتالى من بواعث الصراع والتطاحن على الأخص بين ماردين لكل منهما مذهبه ويحاول كلاهما أن يتخذ منه وسيلة لاجتذاب الدول المتعطشة لهذه المساعدات ، ومشروع مارشال ، برهان على هذا . والحق إن المشروعات الاقتصادية الرأسمالية تخفى وراءها غرض الاستحواذ على الأماكن الاستراتيجية ، بل المواد الأولية اللازمة ، وعلى الاخص الذهب الأسود الذى يتفجر من أرض الشرق الأوسط .

لم تغفل الروسيا عن هذه الحقيقة . فكانت حريصة دائما على أن تحول دون تسرب أي نفوذ خارجي في المناطق الشمالية من إيران ، فامتياز داركي يستثنى خمس مقاطعات ، وفي اتفاق ١٩٠٧ وفي تفاهم ١٩٢٥ مع انجلترا أبعدت الاخيرة عن الشمال تماما ، ثم جاء التنازل السوفيتي ١٩٢١ مصحوبا بشرط عدم منح ايران الامتيازات التي تؤدي إلى التنازل عنها لأية دولة أجنبية... حتى اذا كانت الحرب العالمية الثانية، وتقرر احتلال إيران ، كان شمالها منطقة الاحتلال الروسي . إلا أن الدولتين الانجلو سكسونيتين عملتا على تنمية إنتاج البترول في مناطق الشرق الاوسط بصفة خاصة ، بل لقد تغلغلت المصالح الامريكية في الاراضي السعودية حتى احتكرت استغلال البترول فيها، والذي سيصب بالتالي على سواحل لبنان ، وانجلترا تحاول التفاهم مع أمريكا على ما يشبه احتكارا ثنائيا لموارد البترول في الشرق الأوسط ودارت بالفعل بينهما المفاوضات .

إذن فحرب البترول أصبحت سافرة، بل ذات طابع رسمي ، ولكن إن كان هذا الامر يعني أمريكا وانجلترا البعيدتين عنه، فهل لا يعني الروسيا القريبة منه ؟ لقد كان لبريطانيا بعد الحرب العظمى النفوذ الاعلى في بلدان الشرق الأوسط، فهي مرتبطة بالعراق ومصر بمعاهدتي صداقة، وجعلت من فلسطين وشرق الاردن نقط ارتكاز لها . ثم تحطمت إيطاليا بعد الحرب الثانية ولم تعد خطرا في البحرين الابيض والاحمر ، وخرجت فرنسا عن اللفانت وبذلك اختل التوازن الامر الذي جعل أمريكا تتدخل لتعيده ، ولكنها في الحقيقة إنما تبغي الدفاع عن مصالحها الخاصة وبخاصة البترول ! ومدت الروسيا يدها إلى بلاد الشرق الاوسط فجعلت مصر تعترف بحكومة الاتحاد السوفيتي في أغسطس سنة ١٩٤٣ وتبادلت وإياها التمثيل الدبلوماسي وفي صيف ١٩٤٤ استأنفت علاقتها مع سوريا ولبنان ، ولما كان الاتحاد السوفيتي يشمل جمهوريات

فيها عنصر اسلامى قوى في جورجيا وأزبك وتركمان وغيرها . عمد الاتحاد السوفيتى إلى إصلاح دستورى من شأنه أن جعل للجمهوريات حق إنشاء علاقات خارجية دبلوماسية، وتكوين جيوش مستقلة خاصة بها. مثل هذا الوضع يمكن الجمهوريات ذات العنصر الإسلامى من التفاهم مع أهل الأمم الاسلامية فتعقد معها المعاهدات . وبعبارة أخرى تستطيع الروسيا أن تتفاهم مع العالم العربى فى الشرق الأوسط عن هذا الطريق .

وعلى قدر نوايا أمريكا والروسيا، ومقدار إخلاصها لمبادئها، كيفتاحكمها فى قضيتى وادى النيل وفلسطين . إن مقدار نجاح هاتين القضيتين كان رهنا بمصالحها الشخصية، والعالم تتنازعه اليوم كتلتان تناضل كل منها الأخرى، ولكل منهما أنصاره وأتباعه من الدول الصغرى والوسطى . فاذا كانت أمريكا زعيمة لاحدى هاتين الكتلتين، فان أى رأى تتخذه لنفسها فى قضية ما لاشك سيكون له مؤيدوه من أتباعها ، وبالفعل كان قرار الدول فى قضية وادى النيل يتفق وما تراه أمريكا على ضوء ما يرمى إليه مشروع مارشال عامة، وعلي ضوء نتائج الموازنة التى تقوم بها أمريكا من اتخاذ الشرق الأوسط سندا لها فى نضالها ضد الشيوعية خصوصا . أو عزت أمريكا الى الدول الصغرى، فالبرازيل مفتقرة إلى الاقتصاد الأمريكى، ولطالما احتضنتها أمريكا منذ زمن بعيد، وعلى الأخص فى عهد روزفلت، إذ وثقت عرى التبعية السياسية ، بل كانت البرازيل دائما ( لسان حال ) أمريكا فى كل مؤتمر. جاء مندوب البرازيل فأفتى بشرعية معاهدة سنة ١٩٣٦ ، وبعدم وجود مايهدد السلام فى الشرق الأوسط. وخرجنا من قراره بطلب لاهو يحسم مسألة الجلاء، ولا هو يحل مشكلة السودان . أما الصين فربيبة أمريكا، بل هى مطمع الرأسمالية الأمريكية .

أما عن بلجيكا فهى جزء من الكتلة الغربية الاوربية التي تأتلف وتتحد

مع انجلترا . ولذا كان تعديلها أخطر ، بل أعرب ، إذ اقترحت عرض ... المعاهدة المصرية والبريطانية على محكمة العدل الدولية . فهي في ذلك تناصر انجلترا على طول الخط .

أما الروسيا فناصرت القضية فيما يتعلق بالجلاء عن مصر والسودان . ولكنها ادعت فيما يتعلق بالوحدة بأن المسألة بحاجة إلى درس وفحص . وأيدت حق تقرير المصير فى السودان . وروسيا فى قرارها هذا أرادت إلى حد كبير أن يكون موقفها من القضية المصرية يتفق مع مناقشتها فى مؤتمر سان فرنسيسكو . وأن طلبها في الجلاء الانجليزى عن قناة السويس يتفق ومآربها ، بل ومصالحها . وأنها فى استطاعتها إذ تؤيد مطلب مصر الجلاء أن تكسب بذلك مركزا ممتازا بالشرق العربى .

وإذ انتقلنا إلى القضية الفلسطينية نجد المندوب الروسى فى لجنة فلسطين الخاصة يتحدث عن حق مئات الألوف من اليهود والعرب فى تقرير مصيرهم . ولم يقل (حق فلسطين) أو حق سكانها على العموم . وإذا كانت هيئة الأمم تعترف بحق تقرير المصير لليهود فى فلسطين ، فان الروسيا تستطيع أن تستفيد من ذلك فى المستقبل ، وتطالب بمثل هـذا الحق لسكان أذربيجان فى إيران والكرد فى تركيا وإيران .

ومما لاشك فيه أن تأييد الروسيا لمشروع التقسيم عطف كبير على الصهيونيين ، ولا يخفى أن بين يهود فلسطين اشتراكيون متطرفون قد يتجهون فى المستقبل صوب الروسيا ، ولهذا فسياسة الروسيا إزاء فلسطين جزء من سياسة عامة تتناول مسائل الشرق الاوسط كله ، حيث يشتد التنافس بينها وبين الولايات المتحدة ، بعد أن أصبحت بريطانيا دولة من الدرجة الثانية . ثم إن وجود دولة صهيونية فى الشرق الأوسط سوف يثير عداء العرب جميعا فتضطر إلى طلب المعونة من دولة أجنبية ، وهنا تطمع الروسيا وأمريكا فى مد يدها إليها . تريد

أمريكا من مساعدتها للصهيونيين أن تكون لها قاعدة اقتصادية وسياسية في قلب الشرق الأوسط . وتبغى الروسيا مساعدتها لتفوت هذا الغرض على أمريكا، وبالتالى لتثير روح البغضاء بين أمريكا من جانب، والدول العربية من جانب آخر .. هذا ولما كان مشروع التقسيم يتطلب قوة عسكرية بوليسية دولية، فمما لاشك فيه أن تشترك الروسيا فى هذه القوة، بل إن وضع القدس على الأقل تحت نظام دولى سوف يسمح لها بالبقاء فى الشرق الأوسط، واليهود أنفسهم فى أمريكا هم المسيطرون على الصحافة والدعاية والإذاعة، وتأييد الروسيا لمشروعهم سوف يخفف من عدائهم لها ، خصوصا إذا علمنا أن عدد اليهود في أمريكا يبلغ حوالى ٦ ملايين .

لقد جاء دور أمريكا نتيجة للتدخل الشخصى من جانب الرئيس ترومان: ففى خطاب له إلى الملك عبد العزيز آل سعود في ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٧ رداً على رسالة أرسلها إلى العاهل العربى يحتج فيها على تأييد البيت الأبيض لهجرة اليهود الى فلسطين « إن الولايات المتحدة وقد اشتركت بمواردها وبدماء أبنائها حتى يتم النصر للحلفاء فى الحرب الأخيرة، تشعر بأنها لاتستطيع أن تتخلى عن مسئولية من أهم مسؤلياتها وهى إقامة دولة يهودية لليهود فى فلسطين تعتبر بمثابة وطن قومى لهم ». لقد تحملت أمريكا العبء الأكبر فى هذه العملية، ولم يعد الناس يأسفون على غيابها من عصبة الأمم سابقاً . لقد سبق لأمريكا المطالبة بأن يحصل أهل كوريا على حق تقرير مصيرهم ثم تحول موقفها فى حالة عرب فلسطين .

وإذا كانت الروسيا تقرر موقفها من مشروع التقسيم على أساس أن فى فلسطين عربا ويهودا ، وأن لكل منهم الحق فى التصرف وفى العيش في أرضه، فهي نظرية بالغة غاية الخطورة .. نظرية تكفى لاية أقلية ما، وبخاصة إذا كانت

مؤلفة من مهاجرين أن تكون دولة. ولو سلمنا بهذه النظرية أساسا لتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية وأخرى عربية . لأمكننا إذن أن نسلم بتقسيم كل دولة فى العالم إلى دول أخرى . . علي أساس الجنس لاعلي أساس المصالح العامة المشتركة .

---

obeikandl.com